التغيرات الدولية الراهنة وأثرها في الإعلام والثقافة العربية

ـ ملخص ـ

بقلم الأستاذ الدكتور ــ أحمد حلواني

دمشق ــ سورية

أود أولا أن أثمن مبادرة كلية العلوم السياسية والإعلام في جامعة الجزائر في تنظيمها لهذا الملتقى المخصص لموضوع يعد من أهم قضايا العمل السياسي الذي تواجهه الدول الوطنية أمام تنامي الهيمنة الأحادية على العالم ضمن تجاهل للقوانين الدولية التي رسختها دول العالم بنضال شاق وثمن غال في أعقاب حربين عالميتين مدمرتين ترسخت بعدها منظمة الأمم المتحدة وهيئتها المتفرعة والتي شكلت حالة ارتقاء حضاري كان العالم يتطلع من خلالها إلى مساواة وعدالة وفرص متساوية تنتفي فيها جميع وسائل الهيمنة ومحاولات الضغط.

ومعلوم أن العالم كان في التسعينات قد بدأ التفكير في تعديل ميثاق الأمم المتحدة وإلغاء حق النقض الذي تتمتع به خمس دول العضوية في مجلس الأمن لكن ما حدث بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بشكل عام وبعد أحداث سبتمبر بشكل خاص هو محاولة واضحة لهيمنة أحادية متمثلة بالولايات المتحدة تجلت مؤخرا في الحرب على العراق بدون غطاء دولي ومن ثم في فرض شبه تام لما تريده من غطاء دولي بعد مقاومة غير محسوبة للاحتلال الأمريكي في العراق.

إن انعقاد هذا الملتقى تحت عنوان الدولة الوطنية والتحولات الراهنة يعبر عن حس عال ومسؤولية وتفكير سياسي علمي اطلعت به كلية العلوم السياسية والإعلام في جامعة الجزائر، وهو الأمر الذي أحب أن أثمنه تثمينا عاليا كما بدأت.

إن عولمة التسعينات التي ارتفع شعارها كانت تشير في جوانبها الإيجابية إلى أمور كثيرة تتضمن عدالة توزيع الموارد العالمية وسهولة انتقال المعرفة والتكنولوجيا والسفر والتجارة الحرة وزيادة الإنتاجية وتبادل الخبرات والتواصل الثقافي والفكري وترسيخ مفهوم الاتصال الحر في مختلف قنواته ومستوياته إلا أن ما حدث ولاسيما في بداية القرن الحادي والعشرين شكل صدمة كبيرة لمناصري العولمة ببعدها الإنساني والفكري كما خلق حالة من العداء الكبير لها بحيث عده الكثير من مواطني العالم الثالث بشكل خاص على أنها عودة للاستعمار الذي رفضته الإنسانية في القرن الماضي لكن بشكل جديد يتماشى مع مكتشفات العالم وتنافسه المثير.

لقد رحبت شعوب الأمة العربية بالفكر العولمي ووجدت فيه مجالا رحبا للتلاقي الحضاري والسمو والارتقاء الإنساني المتوائم مع قيمها وطموحاتها كما وجدت فيه فرصة طيبة للخلاص من آثار الفكر العدائي الذي لازم تاريخ البشرية في مراحل متعددة بحيث تستطيع الإنسانية ودول العالم عامة الدخول في مرحلة جديدة مناخها التفاهم والحوار الإيجابي الخلاق والعدل والسلام والتعاون بقصد خير البشرية جمعاء ومن هذا المنطلق بدأت غالبية الدول العربية في دراسة طرق التعامل الدولي في إطار العولمة

المقترحة أو المنشودة وكان ذلك واضحا في مجال التعامل مع الشراكة الأوروبية أو اتفاقية الغات أو التفاعل مع منظمات الأمم المتحدة المختلفة سواء في الجمعية العامة أو اليونسكو أو الفاو أو في المشاركة في قوات الأمم المتحدة في أكثر من ساحة ولا سيما في يوغوسلافيا السابقة كما ساهمت النخبة العربية في تفعيل عمل جمعياتها الأهلية وتواصلها مع الجمعيات الإنسانية في العالم أجمع إضافة إلى العلاقات التي أنشأتها الجامعات الوطنية مع الجامعات الدولية سواء في المناهج المشتركة أو الاعتماد والتدريس وتبادل الأساتذة أو في الفروع الجامعية التي أنشئت في بعض الدول العربية أو في العلاقات العلمية والتدريسية التي أنشأتها بعض الجامعات الافتراضية العربية مع الجامعات العالمية.

ونضيف إلى هذا كله ما عرف بالحوار بين الشمال والجنوب وحوار الأديان في سبيل التعايش وإلغاء المشاعر العدوانية وإحلال السلام. كما تجلى ذلك على الصعيد الإعلامي في السماح باستقبال جميع المحطات الفضائية بدون قيد أو شرط وبفتح المجال الفضائي الإعلامي سواء في مجال الاستقبال أو التعاون أو النقل المشترك أو في إصدار دوريات مترجمة إلى العربية كما هو الحال المختار من ريدرز دايجيست *Digist Reder's* أو نيوز ويك الأمريكية *Newsweek* أو اللموند دوبلومتيك الفرنسية Le *monde diplomatique* . وعلى الرغم من أن الطموح العربي كانت كبيرا في تطلعه إلى مستقبل عالمي متطور ومتعايش في إطار من الوئام والعدل والسلام فإن ما حصل كان مخيبا للآمال بشكل كبير انعكس سلبا على واقع الدول العربية

الوطنية وخلق حالة من البلبلة والتنافر الذي أوصل الكثير من الشرائح الاجتماعية إلى حالة من التشاؤم والإحباط.

فبحجة محاربة الإرهاب بدأت حالة من العداء الخفي للإسلام وبالتالي للعادات والتقاليد والقيم العربية. كما بدأت حالة من التدخل المباشر والسافر في شؤون الدول العربية وفرض الشروط المجحفة والتي من شأنها أن تنقص من مفهوم السيادة الوطنية.

كما بدأت عمليات التدخل في شؤون المنظمات العربية ولا سيما جامعة الدول العربية وهيئاتها المتفرعة والتي كانت تشكل ولا تزال أساس التعاون العربي للانطلاق إلى حالة عربية مشتركة بأشكالها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فشكل هذا التدخل عثرة كبيرة بحيث أصبح بعض الحكام بسبب الضغوط. الأمريكية ممثلين للرأي الأمريكي قبل أن يكونوا ممثلين للرأي العام في بلادهم أو للرأي العام العربي عموما. وبذلك فقد دخل الوضع العربي في إشكاليات كبيرة قد تؤدي مخاضاتها في حال عدم معالجتها بإرادة وطنية واضحة وقوية إلى انهيارات وتداعيات لا تحمد عقباها. الأمر الذي يستدعي تداعي أصحاب الإدارة الحرة والواعية في مصلحة بلدانها وشعوبها وفهم مفاصل قوتها الحقيقية وطريقة التعامل مع الأوضاع الدولية إلى وضع برامج تفصيلية علمية لمواجهة هذه الحالة قبل استفحالها والتلوث والغرق في أوحالها الصعبة. وقد يكون ذلك ممكن الحدوث خارج إطار المؤسسات العربية القائمة.

إن الحملة القائمة على الوطن العربي بشكل خاص على دول العالم الثالث بشكل عام تنفذ ضمن برامج متعددة الوسائل والأساليب فهي بالإضافة إلى العمل المسلح والضغوطات الاقتصادية تستخدم الوسائل الإعلامية والثقافية مستفيدة من التطور التكنولوجي إنما لأغراض سلبية بدلا من توظيفها الإيجابي.

وإذا كان الغزو الثقافي والإعلامي قد اعتمد في أشكاله السابقة على الإذاعة والدراسات المنحازة والصحف فإن التلفزيون بفضائياته الواسعة والإنترنت بشبكاته القوية ومراكز الأبحاث بتوظيفاتها الكبيرة قد أصبحت هي الوسيلة الأقوى في المرحلة الحالية ونستطيع أن نلمح ذلك بشكل جلي في التعاون الكبير القائم بين الإدارة الأمريكية ومحطات التلفزيون ولا سيما *C.N.N* التي واكبت ضمن تسهيلات كبيرة من وزارة الدفاع الأمريكية وإدارة المخابرات، حروبها في أفغانستان وفي العراق. ولقد بات واضحا أن ما يسمى بالإعلام الأمريكي الحر هو نظرية غير دقيقة فيما يتعلق بما يسمى بالمصلحة القومية العليا أو بمصلحة القرار الأمريكي الذي يعد ممثلا للمصلحة الأمريكية العليا. لقد كان مهما جدا أن تخصص بعض المحطات الأجنبية جزءا من قنواتها أو من أوقاتها للبث في العربية إلا أن هذه الأهمية التي كانت ينتظر أن تستند إلى مفهوم العولمة الإيجابية التي قدمنا لها، ظهرت على أنها تستهدف نقل الفكر الأمريكي والترويج له ولاقتصاده بدلا من أن تكون قناة تواصل وحوار متبادل. أما وكالات الأنباء فحديثها معروف

ومكرور وتركيزها على المفاهيم ووجهات النظر الغربية في كل تحقيقاتها وتقاريرها وأخبارها أمر معروف.

أما الإعلام العربي وهو الذي بدأ يستفيد من التطور التكنولوجي المتسارع فالمؤسف أنه لا يزال في بداية الطريق المتعثر المحكوم بأوضاع الأنظمة التي يمثلها والتي تحكمه وظيفيا وماليا وسياسيا ولقد سئلت مرة من طلبة الإعلام في إحدى الجامعات العربية خلال محاضراتي لهم عن رأيي في محطة الجزيرة التي تبث من قطر وقد توقفت قليلا قبل الإجابة ثم قلت إن قناة الجزيرة هي محراك المستنقع العربي الذي نعيش حالته. وقد يكون للمحراك دور إيجابي أو دور سلبي ونحن حتى الآن نقطف الدور السلبي في إثارة الرائحة النتنة وإظهار ما بطن في الحياة العربية بعجرة وبجرة. إلا أن ذلك لا ينفي إمكانية الاستفادة من الدور الإيجابي وهو ما يجب أن تقوم به مؤسسات عربية متخصصة تنشئ قناة جديدة تعتمد على دراساتها وأبحاثها وليس على اجتهادات فردية يقوم بها بعض الإعلاميين في حالات لانستطيع أن نعدّها علمية أو موضوعية في غالب الأحيان.

إن التحديات الراهنة صعبة ومعقدة لكنها ليست غير قابلة للتعامل والمعالجة في إطار من الرؤية الوطنية المستندة إلى وعي علمي في الأوضاع الدولية ومتغيراتها القائمة، وليس من قبيل المفاخرة القول بأن أمتنا العربية واجهت في تجاربها التاريخية أوضاعا صعبة ومشابهة سواء في مواجهتها لحالات الهيمنة الأجنبية التي جاءتها في عصور الإمبراطوريات القديمة من المشرق أو المغرب أو في عصر الحروب الصليبية مع الاجتياح المغولي وتحالف

الإيلخانيين المغول والأوروبيين الأفرنج أو في عصر الاستعمار الأوروبي الحديث والتي استطاعت الخروج منها أو الانتصار عليها بفضل الإرادة الوطنية الحرة وتعشق الحرية والدفاع عن الأمة ورسالتها أولا والمتناسقة مع فهم الأوضاع السياسية المحيطة والعالمية ثانيا.

إن الحملة القائمة حاليا ضد الهوية الثقافية الوطنية وبشكل خاص ضد الأمة العربية هي حملة واضحة الأبعاد تظهر شيئا وتخفي الأشياء أو أنها تعلن هدفا وتقصد أهدافا أخرى مبطنة والمؤسف أن هناك من العرب من اقتنع بهذه الحملة وسار معها سواء بنية حسنة أو بنوايا سيئة فمنهم من رفع شعار التخلي عن العربية الفصحى مستندا إلى التجربة الأوروبية في التحول من اللاتينية إلى اللغات الأوروبية القائمة ومنهم من رفع شعار محاربة الإسلام مستندا إلى الفكر العلماني والتجارب الأوروبية والأمريكية متناسيا الواقع غير النظري للسياسات الغربية والتي تظهرها تصريحات عفوية تظهر بين فينة وأخرى على لسان بعض المسؤولين في حالات من غياب القيود. ومنهم من يركز على ترسيخ الكيانات الانفصالية في الوطن العربي مستندا على مبادئ الحرية وتقرير المصير متناسيا الحالة الأوروبية في التحول نحو الوحدة. بالرغم من عوامل الاختلاف الكبير والتي تغاير الحالة العربية.

إن إنشاء مؤسسة فكرية عربية في إطار جامعة الدول العربية، بالرغم من حالتها الراهنة، تركزّ على دراسة العوامل المصلحية العربية في وحدتها بأسلوب عمل أكاديمي وتتصل مع فروع لها في كل الأقطار العربية ومراكز

الأبحاث هنا وهناك، هو مطلب بات ملحا، شرط أن يعتمد أسلوب البحث العلمي الموثق القابل للنشر والتوزيع والمناقشة والمتابعة. وقد يكون ذلك خير من نفقات الاجتماعات والدورات التي لا طائل منها.

إن البحث في تأسيس مؤسسات عربية ذات طابع علمي تستخدم تكنولوجيا وسائل الاتصال الحديثة ولا سيما التلفزيون الفضائي وشبكات الإنترنت أصبح أمرا لا يحتمل التأجيل وقد لا نكون بحاجة أمام هذا الملتقى الذي يضم هذه النخبة الطيبة للتوسع في الحديث عن أهمية وسائل الإعلام المؤسساتية ودورها الفكري والاتصالي في التأسيس لعمل عربي مشترك يهيئ لدور حضاري عربي رافد للحضارة العالمية التي تطمح لها البشرية في ظل العدالة والديمقراطية والتعايش والسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د. أحمد حلواني

الأستاذ في الجامعات السورية

دمشق ـ سورية